صبيحة

ملكة قرطبة

الملكة صبيحة ــ أو صبح كما كان يحلو للخليفة المستنصر أن يدعوها ــ هي بلا شك المرأة الفولاذية في العصر القديم.

فقد تفردت هذه الملكة بشخصية قوية غير عادية، كان زوجها الخليفة الحكم المستنصر بالله رجلاً فقيهاً عالماً، فجعل من الأندلس ملتقى للعلماء والأدباء والفقهاء، وشهدت البلاد في عهده نهضة علمية واقتصادية كبيرة. وكان من ضمن أهدافه الكبيرة: أن يحول قرطبة إلى مركز للعلم والعلماء، فسعى إلى كل أصحاب المعارف والفقهاء من سائر الأقطار ليستقطبهم إلى الأندلس، وبالفعل: جاءوا إليه من كل صوب، فأكرم الخليفة وفادتهم، وهيّأ لهم مقامهم، وبدأت البلاد تشهد عصراً جديداً من الانفتاح والازدهار، فزادت الجوامع وانتشرت حلقات الدرس، وتهافت الطلاب يتزاحمون على تلقي العلوم من أربابها العظماء، والخليفة الحكم يوجه كل طاقاته من أجل رسالته السامية في: جعل الأندلس بؤرة الإشعاع الحضاري على العالم كله وقلعة العلم.

لكن هذه الرسالة السامية كانت تأخذ الخليفة من مسئولياته تجاه شئون الحكم، لهذا، سارعت صبيحة تعرض عليه أن يتفرغ تماماً لأهدافه العلمية، ويترك لها مسألة إدارة البلاد. ولأنها كانت ذكية، حكيمة بارعة التدبير: فقد رأى الخليفة أن يمنحها من السلطات ما يخولها للحكم نيابة عنه.

فحملت هذا العبء وحدها، واستطاعت بمهارة فائقة أن تثبت جدارتها لما أسند إليها.

تولت صبيحة زمام الأمور في المملكة بقبضة من حديد، وتعاملت مع مصالح الرعية والسياسة الداخلية بمنتهى الحزم والتدبير، ولم تنقض فترة طويلة، حتى كانت صبيحة هي صاحبة الرأي الأول والأخير في طول البلاد وعرضها، فلم يكن أحد يجوؤ على معارضتها، أو عصيان أوامرها مهما كانت، فإن قوة شخصيتها تفرض عليهم حصاراً من الرهبة والخضوع، أما الخليفة المستنصر: فقد ترك مسرح الأحداث باختياره، وجلس في مقعد المتفرجين منشغلاً ــ بما هو لديه طموح علمي ــ عن كرسي العرش وتقلصت سلطته شيئاً فشيئاً حتى أصبحت سلطة أدبية لا غير، بينما الملكة صبيحة صاحبة السلطة الفعلية، هي التي تعقد مجلس شورتها وهي التي تكتب المراسلات والمراسيم،وتفند الأوضاع وتنفقد الحكام والأمراء، وتتابع سير العدالة وتحقق في

مظالم الشعب، وتدبر الشئون المالية والاقتصادية وتراقب أوضاع المملكة في الداخل والخارج، وتقوم بالإصلاحات وتعمل على تنمية الموارد. ومع كل هذا فإن الملكة أيضاً قامت بتجهيز جيش قوي للدفاع عن البلاد وتحصينها من أي عدوان، واستطاعت الملكة ضبط المملكة، كما استطاعت اجتذاب حب الناس وتقديرهم، كانت لا تألو جهداً في سبيل رفعة البلاد، وفي كل يوم جديد كانت تضيف إلى جدول أعمالها المزيد من الأعباء والمهمات، فلما زادت مشاغلها: أخذت تبحث عن كاتب ثقة ليقوم بتحرير أوامرها وتبليغها، وكان هذا العمل يعادل مهنة سكرتير خاص، فوقع اختيارها على شاب يتلقى علومه في جامع قرطبة واسمه محمد بن أبي عامر، وكان شاباً ذكياً ووسيماً وطموحا في السادسة والعشرين من العمر، وقد بادر محمد فور تعيينه: إلى اكتساب ثقة الملكة بكل الطرق، وراح يتقرب منها مستخدماً كل الوسائل، حتى نجح في استمالتها والتأثير عليها، فنال معاملة خاصة ثم ترقى بسرعة في المناصب حتى أصبح مستشار الملكة، قائماً على ضياعها وممتلكات ابنها هشام ولي العهد.

وأثار ذلك أقاويل الناس، وبدأت الألسنة تلقي ظلالاً من الشك على هذه العلاقة الشائكة، وتستنكر إيثار الملكة لهذا الشاب الجميل، والمنح والعطايا التي تجود بها عليه، وحين زادت الشائعات، حتى

وصلت إلى مسامع الخليفة، قرر بعث محمد بن أبي عمر إلى مراكش في مهمة عاجلة، وكلّفه بمراجعة حسابات بيت المال هناك وضبط الدفاتر والتحقيق في قضية التلاعب المالي التي كان متهماً بها واحد من أكابر الدولة هناك، وبالفعل نفذ الشاب الدءوب أمر الخليفة، واضطلع بالمهمة الموكلة إليه على الوجه الأكمل، لكن في زمن قياسي، فقد عاد محمد بن أبي عمر إلى قرطبة في أسرع وقت.

في هذه الأثناء داهم الخليفة مرض الموت، وأصبحت أيامه في الدنيا معدودة، فرأت الملكة صبيحة أن تتصرف بسرعة لتضمن العرش، وتزيح من طريقها نهائياً أي منافس يغريه الطموح في الملك إلى المناوشة وإثارة المشكلات، خاصة وأن المغيرة بن الحكم: أكبر أبناء الخليفة الحكم المستنصر كان خصماً لا يستهان به، لذلك أرسلت الملكة على الفور إلى كبراء الدولة وقادة الجند ورجال الحكم وعقدت معهم اجتماعاً طارئاً بحضور الخليفة، وفيه: منح الخليفة ولاية العهد من بعده لابنه من صبيحة "هشام بن الحكم"، وكان لم يزل صبياً في الحادية عشرة من عمره، وكتب بذلك المواثيق وأشهد عليها الحضور، بعد أن أقسموا يمين الطاعة والولاء. وهكذا نجحت صبيحة في الاستئثار بالملك لها ولابنها

بدون منازع، وإقصاء المغيرة بن الحكم الوريث الشرعي، والأحق بالملك من أخيه الذي كان لصغر سنه: غير مؤهل لهذا المنصب.

وما هي إلا أيام، حتى مات الخليفة، وكان خلصاء الملكة قد نجحوا في تهيئة الرأي العام لتقبل الخليفة الصغير، ونشر الدعوة بين الناس لمناصرته والتحيز له، فلما تولى الأمر بعد موت الحكم المستنصر، هتفت الجماهير باسمه ودعت له، بالرغم من ذلك فقد ظل الخليفة حاكماً شكلياً فقط، وظلت الملكة صبيحة باعتبارها الوصية الشرعية: هي الحاكم الفعلي، وصارت مهيمنة على كل شئون المملكة ومسيطرة عليها، ولكن المغيرة بن الحكم وقف لها بالمرصاد، ولم يغفر لها اغتصابها الملك منه، فبادر إلى مناصبتها العداء، ولم يعترف بابنها خليفة واعتبره سارقا لحقه الشرعي، والتف حوله عدد من الأعوان يناصرونه وينشرون قضيته ويستقطبون الناس موالين له، وأخذ المغيرة يعقد العزم على البطش بصبيحة وابنها، ويدبر الأمر للقضاء عليهما.

فلما رأت الملكة ما يتهددها من خطر وشيك، قررت القضاء على المغيرة قبل أن يستفحل شره، فتآمرت عليه ووجهت له ضربة قاضية، فتخلصت منه ومن أعوانه جميعاً. وبعد أن استتب الأمن: وجهت الملكة طاقتها نحو القيام بحركة إصلاح شامل للبلاد، فخفضت الضرائب، ووضعت خطط الإصلاح الاقتصادي، وقامت

بإصلاح البنية التحتية، وبذلت أنشطة واسعة في مجال التشييد والعمران، واهتمت بالأمن الداخلي وتماسك الدولة، كما سارت على نهج زوجها في رعاية الفنون والآداب، ووقفت تساند النهضة الفكرية التي وضع بذورها وتبذل لها كل مساعدة ممكنة.

ولقد أحبها الناس بسبب أعمالها الجليلة.

ووقف الشعراء على بابها يتغنون بفضائلها.

وسعى إليها السفراء من كل مكان في العالم ينشدون ودها.

واحترمها العلماء والأدباء كشخصية نادرة الحكمة، فياضة العطاء.

أما الشعب فقد شغف بها، وشكر الله أن أنعم عليه بمثل هذه الملكة العادلة الخيرة.

وهكذا كانت صبيحة محط الأنظار، وموضع التبجيل والاحترام ومحل الثقة والامتنان.

ولكن الأيام كانت تدخر لها مفاجأة رهيبة!

فقد ظهر لها منافس جديد يطمع في العرش.

وللأسف كان هذا الشخص: هو آخر إنسان تتوقع منه الشر، كان هو محمد بن أبي عامر ــ الشاب المتواضع المكانة ــ الذي كان في يوم من الأيام مجرد مستخدم بسيط، لا يجرؤ أن يرفع إليها عينه.

الشاب الذي أشفقت عليه فرفعته إلى أعلى المناصب، والذي كان يبدي لها من براهين الإخلاص والوفاء: ما يستقطب به مشاعرها ورضاها.

هذا الذي أحبّته ورفعت من قدره، وعرّضت نفسها للوشايات والأقاويل ثمناً للوقوف في صفه، هاهو اليوم، ويا للعجب.. لا يدخر وسعاً للقضاء عليها!

كان محمد بن أبي عامر، قد استطاع في الفترة الأخيرة أن يحدد بدقة هدفه، ثم اتبع الطرق العملية السريعة للوصول إلى هذه الأهداف، ولما كان عالي الهمة، شديد الطموح، يتميز بالذكاء الحاد والصبر والقدرة على التدبير والحزم، فقد استطاع باستخدام هذه الوسائل: أن يكوّن جبهة لا يستهان بها، تضم بجانب الجنود الذين انتظموا في كتائب حربية تحت قيادته، ومجموعة من العلماء والفقهاء، وكبار رجال المال والأعمال والسياسة، وبهذه الجبهة خاض محمد معركته ضد صبيحة لانتزاع الحكم.

ولم تكن معركة سهلة.

فرغم أن الثورة قد توافرت لها كل العوامل لإنجاحها،

ورغم مقدرة قائدها الدفاعية التي لا يستهان بها،

ورغم مؤهلاته الشخصية التي فرضته على الساحة خصماً شديد الخطورة،

ورغم أن قربه من صبيحة في الماضي: قد منحه ميزة دراستها ومعرفتها معرفة كلية، تتيح له فرصة التنبؤ بردود أفعالها.

إلا أن هذا القائد لم يضع في حسبانه قوتها الداخلية!

هذه القوة التي لم تسمح لها بالهزيمة أبداً.

هذه القوة التي صارت دافعها للصمود والتحدي.

فقابلت الملكة عدوها بشجاعة وصلابة نادرتين، ووجهت عنفه بعنف أكبر منه، وهكذا بدأت الحرب ولكنها لم تنته.

فإن الصراع الذي يشتد يوماً بعد يوم، لم يحسم لصالح أحد.

والمعركة التي أثارت الذعر في القلوب، وراحت ضحيتها النفوس، لم ينتصر فيها أحد.

فظلت قائمة، وأصبح هذا النزاع فتنة تودي إلى حافة الهاوية، فدب الفزع بين الناس وعمت الفوضى، وانتشر الفساد وتوقف سير الأعمال، حتى بات الوضع أشبه بكارثة.

وفجأة.. مات محمد بن أبي عامر وكان ذلك عام ٣٩٢ هجري.

وانتهت الفتنة.

فبعد موت محمد: تمكنت الملكة من قمع الثورة، والقضاء على مثيريها وأعادت الأمن إلى البلاد.

وبعد ذلك ظلت صبيحة تحكم كملكة على عرش الأندلس، دون منازع حتى توفيت عام ٣٩٨ هجري.